دلالة النار في الموروث القديم

الباحثة :

سندس محمد عباس السعيدي

مدرس مساعد

كلية القانون/جامعةالقادسية

الخلاصة

تُعد النار واحدة من عناصر الطبيعة ، كانت تشغل مساحة واسعة من حديث الشعر العربي ، عبر العصور القديمة ، وذلك لتعلق الإنسان بالطبيعة وعناصرها ، حيث كان يعتقد أنَّ في الطبيعة قوة خارقة تسيطر على أقدار الكون ، والنار أحد هذه العناصر المسيطرة التي تتسم بغموض خاص وسحر معيّن ، لما تتمتع به من صفات التمّرد والقوة ،فعبدها الوثنيون الفينيقيون والساميون القدماء ، وقدسها الفرس، وبنوا لها بيوتاً تُعرف ببيوتِ النار، وكانوا ينشدون لها الأناشيد ، ويتقربون لها بالنذور لكي تحميهم وترعاهم من أي مكروه يصيبهم في حياتهم ،ثم إننا نجد أنَّ بعض القبائل العربية قد عبدت النار مثل تميم ،وتقربوا لها بالقرابين ،أما بقية القبائل العربية فكانت النار عندهم وسيلة للإستسقاء أو للحلف، أو التحالف أوكانت رمزاً للكرم ، ولهم نيران كثيرة ، ذكرها الشعراء لنا من خلال أشعارهم وصوروا لنا طقوسها، فقد إنتفع الشعر الجاهلي من هذه الظاهرة في بنيتهِ الفنية والموضوعية إذ لايمكن فصل صور الشعر الجاهلي عن الفكر الذي نهل منهُ الشعراء في تجاربهم وصورهم الفنية ، فضلاً عن إنتفاعهم بتلك المعتقدات التي شكّلت جانباً كبيراً في التفكير الإنساني بصورة خاصة ، حتى أنَّ الشاعر الإسلامي الذي حَمّل النار معانٍ إسلامية، كانت مستمدة من معاني النار في الإسلام والقرآن الكريم لم يكن يعرفها عرب الجاهلية ظلَّ يحمّل النار معانَي أفقٍ أنساني متسع ، وفكرةً تسكنُ رؤيةَ الشاعر الإنسان ، ورمزاً يُشكّل من خلال لغته الشعرية ، فيكتسب شعرية المكان والأحياء والوصف .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن ما يسعى إليه هذا البحث هو الدراسة الدلالية للنار ، بشكل مكثف ، لكون البحث واسعٌ وشاملٌ ، وهو يتحدث عن هذه المفردة الوجودية ، التي تختلف نظرة الناس إليها في كلِّ مجتمع ، وفي كلِّ عصر، وقد توحدت نظرة الديانات التوحيدية إليها لكونها أداة تعذيب في العالم الأخر .

أما بقية الشعوب البدائية فأما إنها عبدتها ،وأما عظمتها بصورة كبيرة . والشعب العربي كان تأثره بهذه الظاهرة الطبيعية وعظمتها في العصر الجاهلي كان كبيراً وقد جرت لها طقوسُ غريبة من خلال استعطافها والتوسل إليها مثلما ضحّى إليها بأنواع القرابين ولم يضحي العرب الجاهلين بضحايا بشرية ، بل دون ذلك ، والحق يقال إن هذه الظاهرة الطبيعية الساحرة للعشاق والشعراء والمتأملين أصحاب الفكر أثّرت في أحاسيسهم وعواطفهم ، وبين أثرها على نتاجهم الأدبي لأنَّ الأدب جاء نتيجة تفاعل المبدع مع عالمه وتأثير هذا العالم عليه.

وقد أشتمل هذا البحث على مقدمة ، وثلاثة مباحث تعقبها خاتمه . جاء المبحث الأول بعنوان ، (النار في القرآن الكريم) تحدثت فيه عن دلالة النار في كتاب الله العظيم ، وكيف أستخدمها الخالق وسيلة للترهيب ، وكذلك تناولت أهم النيران في القرآن الكريم ممثلة بنار موسى ، ونار إبراهيم ، ونار القربان عند بني إسرائيل. أما المبحث الثاني فقد جاء بعنوان (النار في ميثولوجيا الشعوب) تحدثت من خلالهِ عن النار في ميثولوجيا الشعوب،وهو مبحث يميل إلى جمع العادات الغريبة لشعوب العالم ، وبضمنها الشعب العربي قديماً ،بما لهذه الظاهرة الطبيعية من أثر في الوجود ،وكيف عظمت النار وعُبدت وأشهر الشعوب التي قدستها وعبدتها وعظمتها . أما ألمبحث الثالث فقد جاء بعنوان ((نيران العرب)) تحدثتُ فيه عن أثر هذه الظاهرة الطبيعية على الشعراء المبدعين و كيف أثرت على أنفسهم الشفّافة التوّاقة للجمال ، والى خلق عوالم الجمال من كلَّ شيىء ، حتى وان كان فيه بعض المضّرة ، وان الإنسان العربي كان صاحب إحساس بالأشياء الرقيقة، الشفافة التي تبعث على التأمل، وان كان في ظاهرها أذىً، وقد تحدثتُ عن أشهر نيران العرب ،وكيف رأوا هذه

النار من خلال ثقافتهم وتأثيرها على نظرتهم لها من خلال مشاعرهم أيضا،وقد اعتمدت هذه الدراسة على تعقب هذه الظاهرة الطبيعية في المصادر القديمة المعتمدة، وعلى إشعار العرب الجاهليين وبعض الإسلاميين لكشف التطوّر الدلالي لهذه الظاهرة الطبيعية من خلال الموروث العربي.

المبحث الأول

النار في القرآن الكريم

النار عنصر طبيعي فعّال ينبعث منه النور والحرارة 1وهي مؤنثة 2 قال تعالى (أن بورك من في النار ومن حولها)3، وأصل الألف فيها الواو ، لأنّها تُصغّر على (نويرةَ) وجمعها (نور)4ونيران، وقد انقلبت الواو في نيران ياء لكسر ماقبلها 5 والقيا س في إشتقاق المفرد يرجع إلى أصل ذكرهُ ابن فارس يدل (على إضاءة، واضطراب،وقلة ثبات)6ومن ذلك النور والنار لإضاءتها، وذلك يكون (مضطرب وسريع الحركة)7

وقد خصّ القرآن الكريم النار وألفاظها بالكثير من أياتهِ الكريمة، فقد ذكرها في مائة وخمس وأربعين آية .

فذكر الله منفعتها، وحسن عائدها في الدنيا والدين ،فأما منفعتها في الدين فأنّها تذكّر بما أعد الله تعالى لعصاتهِ منها في دار العذاب فيكون ذلك مرافقها فغير مجهولة، فقد خصَّ الإنسان بخيرها دون غيرهِ من سائر الحيوان ، فليس يحتاج إليها سواه وليس بها غنى عنها في حال من الأحوال ، والنار أكثر ما ينتفع بهِ ،وأعظم المرافق إلاّ أنَّ الله عز وجل قد جعلها الزاجرة عن المعاصي، لكأنَّ ذلك مما يزيد في قدرها ، في نباهة ذكرها ((نحن جعلناها تذكرةً ومتعًا))8 وقال تعالى

((أفرءيتم النار التي تورون ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون))9 قال البيضاوي ((أفرءيتم النار التي تورون)) أي تقدحون ((ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون)) يعني الشجرة التي منها الزناد، ((نحن جعلنها)) جعلنا زناد النار 10 ((تذكرةً))((تبصرة في أمر البعث))11

وهذا من بدائع خلق الله إنقداح النار من الشجرِ الأخضرِ مع مضادة النار الماء وانطفائها به ، وهي الزناد التي تورى .

وفي أمثالهم في كلَّ شجرةِ النار ، واستمجد المرخ والعفار 12، ويقطع الرجل منها غصين مثل السواكيين ، وهما خضراوان ويقطّر منها الماء فيسحق المرخ ،(وهو الذكر على العفار وهي الأنثى فتقدح النار بأذن الله)13 وقد علمنا أنَّ اللهَ عذب الأمم بالغرق ، والرياح ، وبالحاصب والرجم ، وبالصواعق ، وبالخسف ، وبالمسخ ، وبالجوع وبالنقص من الثمرات، ولم يبعث عليهم ناراً ، كما بعث عليهم ماءً وريحاً وحجارةً،وجعلها من عقاب الآخرة ، ونهى أن يحرق بها شيىء من الهوام . وقيل على لسان رسول الله (ص) ((لا تعذبوا بعذاب الله))14 ولم يعنِ أنَّ التعذيب بالنار نعمة يوم القيامة ،ولكنه أراد التحذير بالخوف والوعيد بها وهو غير إدخال الناس فيها وإحراقهم بها 15 وقد أبدع القرآن في تصويرها تصويراً يبعث الرهبة في النفوس والهلع في القلوب والخوف من أن يكون المصير اليها فتلجأ إلى العمل تتقي به لظاها وتتخذه ستاراً بينه وبين لفحها ، فوصفها ووصف أحوالها وأبوابها وأوديتها وسجونها وسلاسلها وأغلالها ولونها 16 قال تعالى ((كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها))17 فالنار سوداء لايضىء جمرها ولا يطفئ لهبها ،18كما وصف

سكانها بأنّهم يحسّون بالضيق ، وكان أهل النار يرص بعظهمم رصّاً إلى جوار بعض لايكاد يجدون متعة للحركة والانتقال وقال تعالى ((أنها عليهم مؤصدةُ))19والإيصاد ليس مجرّد الإغلاق وأنما هو السد المحكمَ والأطباق 20أما وقود جهنم فهم جنود إبليس ، والناس الطغاة والحجارة لأنَّ أهل النارِ لهم الصلاة الوثقى بالحجارة لأنَّ الإنسان الغافل الذي لايدرك ولا يعقل ولا يبصر ولا يسمع أشبه شيىء بالحجارة والجماد . وهنا يوجه القرآن أنظارهم إلى أنَّ ما يعبدونه لو كان يستحق إلهاً ما صح إنْ يلقى في نار جهنم خالداً فيها 21ومن أشد صور العذاب إثارةً للتقزز ، وتخويفاً للنفوس وحملاً على الاستقامة والإيمان ولو تُأمل فيها 22 صورة الماء القيح الذي يسقى الجاحد، المكابر، المجانب للحق الذي يشربه جرعة جرعة ولا يكاد يشربه بسبب مافية من نتن ورداءة طعم ونحوه ذلك. قال تعالى((واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد * من ورائه جهنم ويسقى من ماءٍ صديدٍ يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميتٍ ومن ورائه عذابٌ غليظ))23 وتدل النار على معاني عّدة في القرآن الكريم كالحرارة المجّردة لنار جهنم في قولة تعالى ((نارُ الله الموقدة)24 والسعير بمعنى النار قال تعالى ((فريقٌ في الجنةِ وفريقٌ في السعيرِ)) 25ويقال استعرتُ النارَ في الحطب وإستعرت الحرب وإستيعارها،توقدها 26 أما(الشواظ) في قولة تعالى ((يرسل عليكما شواظ من نار))27 هو اللهب الذي لادخان له ،وكانت العرب تعرف ذلك قبل أن ينزل القرآن الكريم قال أميّة بن خلف وهو يهجو حسان بن ثابت وهو يقول :

الأمنُ مبلغُ حسّانَ عنّي مغلغلةٌ تدّبُ إلى عكاظِ

أليس أبوك فينا كان قينا لدى القيناتِ فشلاً في الحفاظِ

يمانيا يظل يشب كبيراً وينفخَ دائبا لهبَ الشواظِ28

فالشواظ هو لهب بلا دخان 29 أما النحاس ففي قول الله عز وجل ((يرسل عليكم شواظ من نارٍ ونحاس فلا تنتصران))30 هو الدخان الذي لا لهب فيه وبهذا المعنى استخدمه النابغة الجعدي :

يضئ كضوءِ السراجِ السلـ يط لم يجعل الله فيه نحاساً 31

وعن ابن عباس (النحاس) الصفر يعذبون به ويذاب فوق رؤوسهم 32 . أما الراغب فالنحاس ألهيب بلا دخان وذلك تشبيه في اللون بالنحاس والنحس ضد السعد

وأصل النحاس أن يحمر الأفق فيصير كالنحاس 33 أي لهب بلا دخان فصار ذلك مثلا للشؤم ، والآية في العذاب والشؤم والهب بغير دخان يفيد الانظاج وربما هذا المعنى المطلوب (الشرر) في قولة عزوجل ((إنها ترمى بشررٍ كالقصرِ))34 الشرارة و(الشرر) ما تطاير من النار 35 والشر : السوء . وهوة نقيض الخير والقياس في الاشتقاق أصل ،ذكر ابن فارس يدل على (أنتشارة وكثرته ومن ذلك يقال لما يتطاير من النار شر)36 القبس في قوله عزوجل :((وهل أَتك حديثُ موسى * إذ رءا ناراً فقال لأهلهِ امكثوا إنِي ءانستُ ناراً لعلى ءاتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النار هُدًى)) 37 وقبس النار يقتبسها وأقتبسها ، أي أخذها أو طلبها وقيل هي المتناول من الشعلة . والقبس والاقتباس طلب ذلك 38 ومن معاني القبس في اللغة شعلة نار تقتبس من معظم النار ولا يفوتنا حسن الكلمة في البيان القرآني ،في كونها أتت هذه الكلمة في هذه الآية مع الإيناس والهدى والنور 39.

وتفسير النار في القرآن الكريم على وجهين آخرين غير نار جهنم وهما النار تعني: نور في قوله تعالى في سورة طه ((إنِى أنست ناراً))40.

الوجه الثاني : مثل ضُرِبَ لإجماع اليهود على محاربة النبي (صلى الله علية وآله وسلم)، فذلك قولة عز وجل ((كُلما أوقدوا ناراً للحربِ أطفأها الله))41 يعني كلماأجمعوا أمرهم على محاربة النبي (صلى الله علية وآله وسلم) مزَّقَّ الله أمرهم وأطفأها 42 .

وأيضا تطلق كلمة النار على نار الحرب في قولة عز وجل ((كُلما أوقدوا ناراً للحربِ))43 وأستخدم النار بنفس هذا المعنى في الشعر الجاهلي فقال قيس بن الخطيم :

وكنت أمرأً لا أبعثُ الحرَب ظالما فلما أبوا أشعلتها من كل جانب

أربت بدافع الحرب لما رأيتها عن الدفعِ لا تزداد غير تقارب 44

فالاشتعال صفَة من الصفات التي تشبه باشتعال الحرب لأنها مثلها تأكل الصالح والطالح وفي هذا المعنى يقول زهير بن أبي سلمى :

إذا لقحت حربٌ عوانٌ مضرة ضروسٌ تهرُّ الناسَ أنيابُها عضلُ

قضاعيةٌ أو أختها مضريةٌ يحرَق في حافاتها الحطبُ الجزلُ45

فحين تشتُد الحرب وتعضُّ الناس بأنيابها وتحرقهم بنيرانها ، وهم يحاربون في كل مكان ، لايخشون أحدا ، يحاربون قضاعة ومضرا ،وتحرق هذه الحرب الغليظ ضد الرقيق .

ومن أهم النيران التي ذُكرت في القرآن الكريم (نار إبراهيم) (ع)، قال تعالى ((قالوا حَرِّقُوهُ وانصروا ءالهتكم إن كنتم فعلين* قُلنا ينار كونى برداًوسلماًعلى إبراهيم))46.

ويظهر مشهد إبراهيم من خلال هذا الرد الحواري بين الشاهد والغائب .ومن خلاله تتجلى إرادتان هي إرادة الشر والإحراق بالنار ،وهي إرادة الكافرين ،وبين إرادة الخير والدعوة إلى الإيمان ،وهي إرادة الله تعالى والنار هنا(كائن اجتماعي أكثر مما هي كائن طبيعي)47 ومن بلاغة الخطاب الكريم في مشهد نار إبراهيم تشخيص النار، وإظهارها في موقف المنادي المستجيب والطائع في صورة مجازية ، إلا أنَّ طرفي النداء لا يمكن إدراك الصورة فيهما ،فالقائل فوق إدراك الحواس والنار غير متعقلة ، فلا سبيل لان تسمع وتعي القول والنداء .وهذا ما جعل الفخر الرازي في مفاتيح غيبه يقول (بإختلف العقلاء في كيفية الأنجاء بعضهم قال :برد النار وهو الأصح الموافق لقوله تعالى: ((ينار كوني برداً وسلاماً))48 وبعضهم قال:خلق في إبراهيم على ما هو عليه ،والنار على ما كانت عليه ،ومنع أذى النار عنه . ممكن، و الله قادر عليه)49.

نار إبراهيم هي نار الثأر و الانتقام عند قومه وهي نار التضحية عند إبراهيم. إنهّا نار الفداء من أجل الدعوة و التغيير، أنها نار الثورة ضد الضلال و الشرك، لأنه مثل القربان.

نار موسى:

قال تعالى: ((فلمَّا جاءها نودِيَ أَن بورك من في النار ومن حولها و سبحن الله رب العالمين. يموسى إنه إنا الله العزيز الحكيم))50ومشهد النار عند موسى هو عينه مشهد البعثة الموسوية، و المشهد في النص الكريم يبدأ من قضاء موسى الأجل ومر من مدين إلى مصر بأمراته وقطيع أغنامه في ليلة مظلمة ،شديدة البرد و أخذ أمرأته الطلق، وظل الطريق وتفّرقت ماشيته فأصابه المطر فبقى لايدري أين يتوجه، وبينما هو كذلك آنسى من جانب الطور ناراً51.

وفي مناداة موسى من جهة النار: إشارة إلى تمثل الذات الإلهية في هذا الكون العظيم الهائل (ولله المثل الأعلى)،ولقد جاءت هنا لتمثل الهداية والرشاد الى الطريق الذي ينبغي عليه ان يسلكه . واختيار النار قناعاً لغوياً هو توظيف النار في معانيها مثل التّمرد و الثورة و الاعتداد بالنفس و التحدّي، والنار هي القوة الحيّة النابضة المتأججة التي لاتعرف الهدوء ولا السكينة وهي القّوة المدمّرة الهائلة التي تبلور أرادة التغير و التجاوز. و النار موظَّفة توظيفاً رائعاً لإسقاط إيحاءات على ما يريد من موسى من التمّرد و الثورة و أرادة التغيير لواقع قومه. ونار موسى في الميثولوجيا العربية هي مثل للشيىء اليسير الذي يطلب فيوجد بسببه العلق النفيس و الغنيمة الباردة، قال أبن عائشة : (كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فأن موسى ذهب يقتبس فكلمة الملك الجبار)52.

ومن المواضع التي عظمت بها النار إنَّ الله عز وجل جعلها لبني إسرائيل في موضع إمتحان أخلاصهم، وتعّرف صدق نياتهم، فكانوا يتقرّبون بالقربان فمن كان منهم مخلصاً نزلت نار من قبل السماء حتى تحيط به فتأكله فإذا فعلت ذلك كان صاحب القربان مخلصاً في تقرّبه ومتى لم يروها وبقي القربان على حالهِ، قضوا بأنه كان مدخول القلب فاسد النّية، ولذلك قال الله تعالى في كتابه: ((الذين قالوا إنَّ الله عهد إلينا ألا نؤمنَ لرسولٍ حتى يأتينا بقربانٍ تأكلهُ النار قُل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينتِ و بالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صدقين))53

والدليل على أن ذلك قد كان معلوما ،قولهُ تعالى ((قد جاءكم رسل من قبلي بالبينت وبالذي قلتم)54 ثم أن الله ستر على عبادهِ ،وجعل بيان ذلك في الآخرة ،وكان ذلك التدبير مصلحة ذلك الزمان ووفق طباعهم وعللهم ،وقد كان القوم من المعاندة والغباوة على مقدار لم ينجح ويكمل لمصلحتهم إلاما كان في هذا الوزن ،فهذا باب من عظم شأن النار في صدور الناس

المبحث الثاني

النار في ميثلوجيا الشعوب

المعرف إنَّ النار هي أول ما تعلمه الإنسان البدائي، ودخل معها في تحالف غريب بعد أنْ كان يهرع منها وهي شئ ذو حدين ، فيكون ذو فائدة من ناحية الدفء ، طرد الوحوش المفترسة ، والطهو، بيد ان الإنسان في ذات الوقت يخافها ويرهب منها ،وقد أدرك الإنسان بمدركاته إن المخلوق كلما كان يتمتع بحيّوية أكبر كلما كان أضعف ما يكون في الدفاع عن نفسه ضد النار .إنها تلتهم كل شئ وكأنها تقول ، هل من مزيد إذ لايشبعها شئ 55.

وعندما تندلع فإنها تنتشر بسرعة معدية ،وكان الناس لايجدون سببا لاندلاع النار، أو الحريق مما أضاف هيبةً وجلالةً لفكرة النار أو الحريق ،والذي يمكن أن يتّميز بهذا الوجود المطلق العجيب الذي يظهر في كل مكان وبشكل مفاجئ ،ومنقطع النظير وهذا ما جعل الإنسان يحس في أنها تسلك كما لو كانت كائن حي .

فعبدها وتقرب إليها بأنواع القرابين حتى الضحايا البشرية، وكانت الوثنية الفينيقية تقدّم الضحايا البشرية للنار،وقد يقدّمون أعز أبنائهم قرابين تلتهمهم نارالآلهة 56.

أما الساميون القدماء فكانوا يضحوّن بأنفسهم وأولادهم حرقا في النار المقدسة ،فقد ضحى (ميثا)ملك مؤاب بابنه البكر في لهب النار .

وكان الأقدمون يعدّون النار مطهراً قويا ، لأنهّا تلتهم الجسد الفاني ولا تبقي من الإنسان إلاّ روح الآلهة الخالدة ، إنَّ الحافز البشري لجعل الإنسان أو الناس ناراً،هو أن يبعثوا ويحيّوا من جديد الرمز القديم الذي ما يزال حّياً حتى في الحضارات الأخيرة والتي هي أكثر تعقداً ومنها حضارة الهنود التي (تعتمد إلى حرق الموتى وذر الرماد المتطاير من أجل نثر روحه في فضاء هذا الكوكب)57.

فالمدن المحاصرة التي فقدت كل أمل في الخلاص تشعل النار غالباً فتحرق نفسها (والملوك الذين يجدون أنفسهم في مأزق من اليأس والقنوط حرج لامخرج منهُ فانهم يحرقون أنفسهم وحاشيتهم أو بطانتهم ان الأمثلة كثيرة ومتعددة في حضارات البحر الابيض المتوسط وعند الصينين والهنود)58.

ومازال الناس في أمم الأرض قاطبة – حتى جاء الله بالحق _ مولعين بتعظيم النار ، حتى ظل كثير من الناس لإفراطهم فيها ، يعبدونها .59

وأكثر الشعوب التي عبدت النار ، هم الفرس ، والنار في اعتقاد الفرس المبجلين لها ، هي الشكل الدنيوي للنور الإلهي والأزلي الخالد الذي لا يحدهُ زمان ولا مكان ، لذلك كان الفرس يبجّلون النار ويعظمونها حتى قبل ظهور الديانة الزرادشتية ، وذلك في أيام الملك (أفريدون)) .لأنهم لعنوا الظلام ، والأمكنة المغلقة ، وعدوها آلهة شريرة ، فمهدوا السبيل بهذا الاعتقاد لانتشار ديانات تعتمد عل هذا المفهوم . ومن هذه الديانات ، هي الديانة الزرادشتية ، وهي من أشهر ديانات العالم القديم ، قبل الإسلام والنصرانية، كما يعدها مؤرخو الديانات تطّوراً حضارياً للديانات الأسبق التي قدّست قوى الطبيعة . وتنسب هذه الديانة إلى المصلح زرادشت الذي ولد في أواسط القرن السابع قبل الميلاد في إقليم ميدية وسط إيران ، وقام أتباعه بنشر دعوته بعد مقتلهِ في أحدى معاركهِ على يد قبائل الهون الذين كانوا يناوؤن دعوته الدينية ، وعرف هؤلاء المبشرون باسم (المجوس) الذين احتكروا المناصب الدينية الهامة في هذا الدين ،بيد أنَّ العرب أطلقوا هذه التسمية على أبناء الدين بشكل عام 60 وقد إقتصر دين زرادشت بتشكيل أساسهُ الصراع الدائم بين الخير والشر ، وغلبة قوى الحياة على قوى الموت ، وفي نهاية المعركة القائمة بين الخير والشر تشتعل الأرض بفعل سقوط

نجم المذنب وتصبح كأنّها سيل ملتهب ،ويضطر بني البشر من الأحياء أو الأموات الذين يبعثون إلى اجتياز هذا السيل ، حيث يجتاز الأخيار بسهولةَ في طريقهم الى الجنة الموعودة ، ويسقط الأشرار والشياطين الى الجحيم و يتبع ذلك أن تبرد الأرض من جديد بعد تطهيرها ويعيش المؤمنون في سلام 61. فالنار تتولى تطهير كل شيىء، فهي تشبه النار التي تحرق العالم . يوم القيامة وكذا نار الجحيم لقد كان القدامى يشيرون في تصوراتهم لنهاية العالم على يد أحد هذين العدّوين: الماء أو النار وان احدهم سيكون المنتصر فالطوفان ينهي العالم بواسطة الماء والحريق العام يدمر العالم بالنار 62إما الأسس التي ترتكز عليها الدعوة ، فهي ثلاث الفكر الطيّب ، والقول الطيّب ، والعمل الطيّب . وربما تكون هذه التشريعات الدينية مقبولة والقوانين متفقٌ على صلاحها لحياة المجتمع ،كان اثراً من آثار الديانة اليهودية التي انتشرت بهضبة إيران بعد السبي أيام(بختصر) وقد مارس اليهود شرائعهم ،وإهتموا بتدوينها دون الدعوى الى ديانتهم . وقد أتاح إختلاط الشعوب في آسيا الوسطى أرضاً صالحة لمزج الثقافة والديانات المختلفة،ويبدو أن زرادشت تأثر بهذه الديانة فتصوّر انه نبي كما انه وضع كتاب مقدس للزرادشتية ثبتّ أصول دعوته في كتابه المعنون (الأوستا) الذي أصبح في ما بعد كتابا مقدسا للزرادشتية ودستورا للدولة الساسانية 63، والى جانب تعظيمهم لهذا الكتاب عظموا النار وبنوا لها بيوتا وقد وصف المسعودي إحدى بيوت النار قائلاً (رأيت بنيناً عجيباً وهيكلاً عظيماً، وأساطين صخرٍ عجيبة ، على أعلاها صور من الصخر طريفة)64 وكانت تشيد ثمانية الشكل ،ولها أبواب من ثمانية أركان تنتهي الى ثمانية أبها 65 تؤدي الى قدس الأقداس المغلق الذي توقد فيه النار المقدسة ، وذلك بناءً على تعاليم زرادشت بعدم وصول أشعة الشمس الى النار ، وكانت النار المقدسة توقد في أواني معدنية كبيرة محمولة على أرجل، او ترتكز على عمود ضخم عل شكل مصطبة وكان رجال الدين (الهربذة)66 يقومون بمهمة إيقاد النار ، في أوقات الصلاة الخمس ، مع حرق البخور وترتيل الأدعية ، ويصاحب إيقاد النار في المناسبات الدينية والأعياد والمهرجانات أنشاد الترانيم المصحوبة بألحان موسيقية ،وكان الفرس يقدّمون الذبيحة للنار كي تأكلها على المذبح وهم يتلون هذه الصيغة(كلي وأولمي أيتها النار، سيدة العالم كله)67 وكانت الديانة الزرادشتية تفرّق بين خمسة أنواع من النيران . نار المعابد المقدّسة ، ونار

الجسد وهي عندهم نجسة، وتوجد في الإنسان والحيوان، ونار النبات، وهي طاهرة تشتعل عند إحراقها ، ونار السحاب أوالصاعقة وهي التي تقدم إلى(أهورا مزدا) في جنة الخلد ، والنار المجسّمة وأقدس أنواع النيران ،ويبدو أنها نار جنة الخلد التي يغمر نورُها المؤمنين في الجنة الموعودة وقد ذلك جعل الفرس للنار عيداً(آزر جشن)أي عيد النار الذي يحتفل به في الشهر السادس 68 من كل عام .

كما أنهم إستسقوا بالنار، قال البيروني في تفسير (عيد آفريجكان) أي عيد صب الماء عند الفرس السبب فيه ان القطر احتبس في زمن(فيروز جد آنوشروان) وأجدب الناس ، فسار الملك الى بيت النار بفارس ، وقام بضم لهب النار الى صدره ثلاث مّرات وبلغ اللهُب لحيتهِ ولم تحترق ثم دعا وإستسقى وعندما توجه نحو دارا نزل المطر بغزاره لم يعهد وها من قبل ، فكان كل الناس من السرور الذي لحقه من ذلك ان صب على صاحبه الماء ، وصار ذلك اليوم عيداً في إيران كلها 69.

وقد إستخدم العرب دون غيرهم من الأمم النار طقساً سحرياً للاستسقاء فكانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات ، وركد عليهم البلاء ،واشتد الجدب واحتاجوا الى الاستمطار، إجتمعوا واجمعوا ما قدروا عليه من البقر، ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر 70. ثم صعدوا بها في جبل وعر ، وأشعلوا فيها النيران وضجّوا بالدعاء والتضرع ، فكانوا يرون ان ذلك من أسباب السقيا لذلك قال أميّة ابن ابي الصلت يصف هذه الطقوس :

سنة أزمةُ تَخَيّلُ بالنَّا س ترى للعِضَاة فيها صريرا
إذ يسفُّون بالدقيق وكانوا قَبْلُ لا يأكلون شيئاً فضيرا
ويسوقون باقراًيطرد السهـ ـلَ مهازيل خشيةً أن تبورا
عاقدين النَّيران في شُكُر الأَذ ناب عمداً كيما تهيج البُحُورا
فاشتوت كلّها فهاج عليهم ثم هاجت إلى صبيرٍ صبيرا
فرآها الإله ترشُمُ بالقطـ ـر وأمس جنابُهم ممطورا
فسقاها نَشَاصُهُ واكف الغَيْـ ـث منه إذْ راوعوه الكبيرا 71

وعلل الدكتور(جواد علي) إضرام النيران في أذناب البقر بان ذلك انما فعلوه على سبيل التفاؤل ،فالنار أشارة الى البرق ، والبرق مجلبة للمطر 72 وذكر المؤرخ العربي القز ويني عن سعد بن مهلهل طقساً سحرياً لمنع سقوط المطر، كان شائعاً في بعض

قبائل البدو في(حضرموت) وهو ان(أهل الري أذا دامت عليهم الأمطار وتأذوا منها صبوا لبن الماعز على النار ، فانقطعت . قال جربت هذا مررا فوجدته صحيحا) 73 كان للنار مكانة مرموقة في المعتقدات الجاهلية ، واعتقدوا فيها قوة سحرية و أوقدوها في الحلف المقدس، و أشهروا بها الغادرين و ربما جاءت عبادتهم للأصنام الحجرية لكون النار لا تقدر على إحراقها و إفنائها.وقد عبد بعض العرب ومنهم (تميم و غيرها) النار بطقوس خاصّة ، فهم يحفرون أخدودا" مربعا في الأرض ، و يضرمون فيه النار ، ثم يطرحون فيها الطعام و الشراب واللباس والجواهر تقرباً إليها ، وحرموا إلقاء النفوس فيها 74.

وزعم أهل الكتاب أن الله تعالى أوصاهم بالنار ،وقال (لا تطفئوا النيران في بيوتي) فلذلك لا نجد الكنائس و البيع 75، وبيوت العبادات ، وهي لا تخلو من نار أبداً ، ليلاً ولا نهاراً حتى اتخذت للنيران بيوت و سدنة ، و وقفوا عليها الغّلاة الكثيرة 76 . ومن تعظيم النار إحتفال الإغريق بإسبوع عيد القيامة في القدس ، وهو من الأحداث الشهيرة ، ففي مساء هذا العيد تنزل النار المقدسة من السماء ، وتهبط في كنيسة ضريح المسيح ، ويجتمع الآلف من الحجاج من كلِّ نواحي الأرض ليشعلوا شموعهم من هذه النار التي لا تعد خطرة لأنهم واثقون أنّها لا تسبب لهم أذى ومع هذا فان السعي للوصول الى هذه النار ، قد افقد عدد من الحجاج حياتهم ، ويعتقد الإغريق العرب بان النار لن تأتي ما لم يركضوا حول الضريح و يقفزون بجنون حول الضريح المقدس فبعضهم يرتدون فراء الأغنام و البعض كان عارياً تقريبا، وعندما تقترب ساعة نزول النار حسب إعتقادهم يأتي الأسقف وهو (أسقف النار) مسرعاً مع زمرة صغيرة متراصة على الجانب الشمالي من الضريح و يغلق باب الكنيسة وراءه ، و يقف على الجانب الشمالي من الضريح راهب يستلم النار ،وعند اللحظة المرتقبة ، وعندما يلوح اللهب البّراق داخل الثقب، وهي شعلة الأسقف في داخل (كما يعلم كل متعلّم من هؤلاء الإغريق) غير أنَّ كل حاج يعتقد أنَّ هذه الشعلة منّزلة من عند الله نفسه على الضريح المقدس للمسيح . ثم تتلقف هذه النار على أيادي الحجاج في الكنيسة ويخرج الأسقف محمولا على الأكتاف في حالة إغماء ليعطي الناس من حوله انطباعا ، بأنه قد غلب بعظمة و جلال القوّي الجبار ، الذي جاء لتوهه من حضرته ، كما يعتقد القوم 77 و من علاقة الناس الغريبة بالنار والتأثر بها ،ما نجدهُ في

الشعوب البدائية فقبيلة الناتشيز حيث كانت النار مشتعلة طيلة العام الماضي تترك لتطفى من نفسها في ليلة العيد، و قبل الفجر يقوم الكاهن بتلاوة كلمات سحرية بصوت خافت ،و في هذه اللحظة تنبثق النار من الخشب ثم

تنقل النار الى دوائر القصب وهكذا فإنَّ هذا اليوم هو الذي يوّحد عيد الشمس وعيد الحصاد 78 و يُعتقد أنَّ الفتاة الصغيرة التي تقفز فوق النار ثلاثاً الى الأمام و الى الوراء سوف تتزوج عن قريب و تهنأ .

وأشبه بهذا المعتقد يوجد في مدينة كركوك نار مشتعلة من تلقاء نفسها وهي تلك النار التي يطلق عليها بالنار الازلية عجزت عقول الأقدمين على فك طلاسم نارها الأزلية و معرفة أسرارها و ألغازها ،و هناك جملة من المعتقدات الشعبية التي وصلت ألينا في اعتقاد الناس بأنَّ النار الأزلية مباركة لأنّها إتقدت بإرادة الله سبحانه وتعالى وقد كثرت أعمال السحر والشعوذة لفعل هذه النار ومنها إمرار مدية غمرت في هذه النار الأزلية على سرة امرأة عاقر أعتقاداً منهم أنَّ هذه النار ستجلب لها الحمل .

فضلاً عن النذور التي كانت قديماً تقام حول هذه النار 79 التي فرضت شخصيتها الأسطورية على إمتداد القرون الماضية فما وهن عزمها ،ولا ذبل شبابها ،ولا خف زئيرها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

المبحث الثالث

نـيران الـعرب

دون شك في إن الشعر هو الوثيقة الصادقة التي تفصح عن مشاعر و أحاسيس وعواطف قائله ، و تكشف عن المثل و القيم و الطبائع و العادات ، فهو يُعد الصورة الصادقة لعادات العرب و تقاليدهم ، إذ لا يمكن فصل صور الشعر الجاهلي عن الفكر الذي نهل منه الشعراء في تجاربهم ، وصورهم الفنية فضلاً عن انتفاعهم بتلك المعتقدات التي شكّلت جانباً كبيراً من التفكير الإنساني بصورة خاصة ، أمّا موقف الشعر الجاهلي من هذه الظاهرة ،و مدى إنتفاعه بصورها في بنيته الفنية و الموضوعية ، فهذا ما تكشفه النصوص الشعرية ، فقد إستخدم الشعراء الجاهليون النار و ألفاظها في أشعارهم، وإختلفت دلالتها باختلاف الموضوعات الشعرية التي تناولته كما اختلفت أسماؤها. فقد عرف الجاهليون أنواع عديدة من النار منها:

1 – نار التحالف و الحلف : فلا يعقدون حلفهم إلاّ عندها فيذكرون منافعها ويدعون الله بالحرمان من منافعها ، على الذي ينقض عهد الحلف 80 فكانت لهم نار باليمن لها سدنة ،فإذا تفاقم أمر بين قوم حلفوا بها انقطع ما بينهم من تعاد وسموها الهولة ، و المهولة و كان سادنها إذا أتى برجل هيبهُ الحلف بها ، و كان لها قيم يطرح فيها الملح و الكبريت ، فإذا وقع فيها استشاطتْ و تنفضتْ ، فيقول له هذه النار قد تهددتك، فإنْ كانَ مذنباً نكل ،و إنْ كان بريئاً حلف ،قال الطبري: (وكان باليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم و لا تضر المظلوم)81 قال أوس إبن حجر:

إذا استقبلته صدى بوجههِ كما صدى عن نار المَّهول حالفُ82س

2 . نار الغيلان كانت العرب قبل الإسلام تزعم أنَّ الغيلان 83 توقد بالليل النيران للعبث واختلال السابلة وإنها تخبو تارة، وتشتعل تارة، وبهذا يقول الشاعر الجاهلي:

فلله درُّ الغولِ أي رفيقة لصاحب قفرٍ خائفٍ ُ متفقّرٍ

أرنت بلحنٍ بعد لحنٍ وأوقدتْ حواليَ نيراناً تبوخُ وتزهر 84

3- نار المسافر : (نار الطرد)

و هي النار التي توقد خلف المسافر ، والزائر الذي لا يحبون رجوعه و كانوا يقولون في الدعاء : أبعده الله و أسحهُ وأوقد النار خلفه وهو معنى قول بشار:

صحوتُ وأوقدَ للجهل ناراً وردَّ عليك الصَّبا ما استَّعار 85

4 – نار الاحتيال : و ما زالت تحتال السدنة على الناس لجهة النيران بأنواع الحيل ، كاحتيال رهبان كنيسة القيامة أعظم كنيسة للنصارى في بيت المقدس بمصابيحها ، و أن زيت قناديلها يتوقد لهم من غير نار ،في بعض ليالي أعيادهم قال :و بمثل احتيال السادن لخالد بن الوليد ، حين رماه بالشرر ليوهمه أن ذلك من الأوثان ، أو عقوبة على ترك عبادتها و أفكارها و التعرض لها حتى قال :

يا عزَّ كفرانك لا سبحانك إنّي وجدتُ الله قد أهانك 86

حتى كشف الله ذلك الغطاء على يد رسول الله (ص) 0

5 – نار التهويل : و قد يوقدون النيران ليهولوا بها على الأسد إذا خافوه، و الأسد أذا عاين النار حدّق إليها و تأملها فما أكثر ما تشغله عن السابلة 87

6 – نار الحرب : و هي النار التي كانوا إذا أرادوا حرباً ، و توقعوا جيشاً عظيماً و أرادوا اجتماعاً أوقدوا ليلاً على جبل ناراً ، ليبلغ الخبر أصحابهم حتى يصدوا العدو عنهم في كلَّ مكان و إذا جدَّوا في جمع عشائرهم إليهم أوقدوا ناريين 88.

7 – نار الوسم : الوسم و المسم (التعليم على الإبل بالميسم ، و هو المكواة يقال للرجل : مانار إبلك ؟ فيقول علاط 89، و أخباط 90 أو حلقة 91 ،أو كذا و كذا وقرب بعض اللصوص إبلاً من الهواشة 92 و قد أغاروا عليها من كل جانب ، و جمعوها من قبائل شتى ؟ فقربها احدهم الى بعض الأسواق فقال له بعض التجار :ما نارك ؟ و أنما يسأله عن ذلك، لأنهم يعرفون بميسم كل قوم كرام إبلهم من لؤمها فقال :

تسألني الباعة ما نجارها أزعزعوها فسمتْ أبصارُها

فكل دارٍ لأنس دارُها و كلّ نارِ العالمين نارُها 93

8 – نار القِرى : وهي من أعظم نيران العرب فكانوا يتفاخرون بينهم بكثرة إشعال هذه النار، أو عظمتها، أو كثرة من يقصدها و كانوا يوقدونها على المرتفعات حتى يراها أكبر عدد من المسافرين، أو ممن ظلّوا الطريق ،فيقصدونها و لربما أضافوا إليها المندله الرطب 94 و نحوه مما يهتدي به العميان كما افتخرت العرب بأنّها تشعل النار في يوم شديد الريح يصعب فيه أيقاد النار فقد قال حسان بن ثابت:

إذا كان ذو البخلِ الذميمةِ بطنُهُ كبطنِ الحمارِ في الخَلاء المقّيدِ

وانّي لمعطي ما وجدتُ وقائلٌ لموقدِ ناري ليلةَ الريحِ أوقد 95

و على العكس من نار القرى (نار أبي الحباحب) جاء في (المخصص)96 كان أبو حباحب رجلاً من محارب خصفه، و كان بخيلاً لا يوقد نارهُ إلاَّ بحطب شختْ لئلا ترى، فضرب بنارهِ المثل ،لأنه كان لا يوقد إلاَّ ناراً ضعيفةً مخافةَ الضيافة 0

9 – نار الزحفتين : و تعرف بنارِ أبي سريع ،و أبو سريع هو نبات العرفج وأنما عرفت بهذا الاسم لأنَّ نبات العرفج إذا أوقدتْ فيه شبت بشكل سريع مما يضطر الذي يقربها أن يزحفَ ابتعاداً عنها، ثم لا تلبث أن تخمد بشكل سريع مما يضطر الشخص أن يزحف دانياً منها، لذلك سميت بنار الزحفتين قال الشاعر :

و سوداءُ المعاصمِ لم يغادرْ لها كفلاً صلاءَ الزحفتين 97

10 – نار السليم : و هي نار توقد للملدوغ إذا سهر، و للمجروح إذا نزف وللمريض المضروب بالسياط، و لمن عظّهُ الكلب لئلا يناموا فيشتد بهم الأمر حتى يؤديهم إلى الهلاك قال الشاعر :

أبا ثابت إنّا إذا يسبقوننا سنركُب خيلاً أو ينُبّه نائم

ندامية تعش الفراش رشائها ببيت له ضوء من النارِ جاحم 98

11 – نارُ النِداء : و هي نوع آخر من النيران عرفها العرب ، وذلك إنَّ الملوك إذا سَبوا القبيلة خرجت إليهم السادة للفِداء و الأستنهاب، فكرهوا أنَّ يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن، و في الظلمة فيخفى قدر ما يحسبون لأنفسهم من الصفى فيوقدون النار لعرضهن ، قال الأعشى :

ومنّا الذي اعطاه بالجمع ربُّهُ على فاقةٍ و للملوكِ هباتُها

نساءُ بني شيبان يوم أوارةٍ على النارِ إذ تجلى لها فتيانها 99

وإذا كانت النار و دلالاتها وإيحاءات صورها من الموضوعات التي شغلت ذهن العربي ، فليس غريباً أن تأخذ طريقها الى موضوعات القصيدة ، من خلال الروافد التي أستقى منها الشعراء صورهم ،وتعبيراتهم حتى إمتدت الى ثنايا حكمهم ومواعظهم ، فأستعانوا بها و بدلالاتها في تكوين الصور الشعرية ،و يشير استقراء ما خلفته الأيام من الشعر الى كثرة تو ظيف الشعراء لتلك الدلالات فضلاً عن البواعث النفسية لاستخدام ذلك في موضوعاتهم الرئيسية 0

و قد أثر الرماد (وتوسيم الفحم) على الشاعر الجاهلي ، عندما يرى الأطلال و لم تبقى من صورة الحياة التي كانت عامرة بها هذه الديار غير هذا الرماد ،مثلما لم يبقَ من حبَّهِ الذي كان يلهب في صدره سوى بقايا من ذكرى تسَّعر نارها في قلبهِ الحزين ،وقد (نفاجأ بأنَّ النار التي تلدغنا هي النار التي تنيرنا ،والعاطفة التي تصدمنا هي العاطفة التي نريدها،و عندئذ يغدو الحب عائلتنا،والنار سكناً لنا)100 ، فالشعراء إذاً يتحركون بوعي عندما يحاولون تخليد الطلل من خلال وصفه ووصف بقاياهُ ، و إذكاء من عواطفهم عليه و يحاول الشاعر ذكر هذه المفردات و لا يجد الشاعر أبو دؤادً الأيادي رمزاً خالداً لطلله الذي عفت رسومه غير الرماد والأثافي فنجده يقول :

أمن رسمِ يُعفى أو رمادْ و سفعٍ كالحمامات الفرادْ101

إنَّ كلّ ما يتغيّر بطيئاً تفسّرهُ الحياة، و ما يتغير سريعاً تفسّرُهُ النار 102، و أجمل لقاءات الأحبة و اجتماعهم حول النار لكون النار تثير الدفء و المودّة.

والمودّة تعطي الدفء أيضاً،(و النار تعطي الإنسان الحالم درس العمق)103 واللهب ينبعث من قلب الإنسان ،فتحملُ النارُ أعمق العلامات الإنسانية ، ألا و هي الحب البدائي، فالنار لها القدرة على الاستحواذ ، و قوة عاطفية هائلة فالشاعر قيس بن الخطيم ينقل لنا صورة جميلة تكشف عن أجتماعه مع الحبيبة (عمرة) على النار في مشهد يفصح على المودة و اللقاء مقرونة بالعفاف أذ يقول :

لعمرةَ إذ قلبُه محجّبُ فأنّي بعمرةَ أنّي بها

ليالٍ لنا ودها منصبٍ إذا الشول نطّتْ بأذنابِها

وراحتْ حرابيرُ دربَ الظهو ر مجتلماً طُمَّ أصلابها

كأنَّ القرنفلَ و الزنجبيلَ و أذكى العبير بجلبابها

نمتها اليهود الى قبةٍ و دين السماء بمحرابها

و نارٌ يقصّر عنها الدنـ ـي آخر ليلٍ صلينا بها 104

و الى هذا اليوم يثير إجتماع الأحبة حول النار، أو الموقد المعدني أجواءً رومانسية كون النار دائماً يجتمع اليها الأحبة و العائلة وبخاصة في أيام البرد أذا انَّ لها سحرها الخاص ، فالنار في دلالاتها ذات أفق إنساني متسع ،تختلط بما يفهم العربي من دلالات خاصة فالاجتماع و الكثرة تدل عليها لفظ (المجلس) ، و اجتماعهم دائماً حول النار،بيد أنَّ هذه النار قد تنطفئ وتفقد سحرها ،وطيب مجلسها بفقد أحد الاحبة ، وبهذا قول المهلهل بن ربيعة

أكليب إنَّ النارَ بعدك أخمدَتْ ونسيتُ بعدك طيباتِ المجلسِ105

وفي بيت آخر له يخبر المهلهل إنَّ المجلس قد عاود الاجتماع، وأضرمت النار واجتمع حولها السّمار بعد كليب ورحيله فيقول:

نبئت أنَّ النارَ بعدك أوقدتْ وإستبَّ بعدكَ ياكليبُ المجلُس 106

، فالنار واحدة من مقومات المجلس توحي بالخير و الإفاضة على جميع القوم المجتمعيين حولها ، كما أنَّ الشخص الذي أصابهُ أرق يجدَ في النارِ أنيساً لهُ ، فهي مثله لا تهدأ ، بل تعلو و تنخفض كالمشاعر و الأفكار التي لا تسكن أبداً ، بل تزيد نار قلبه ، و ربما أضافت النار الى العاشق ناراً ،و أصبحت من دواعي لواعجه وهيجان مشاعره مثلما يهيج الكاشح 107 نار العاشق،و يزيده نار الحب ، ويؤججها و يعكر صفو الحياة، و بهذا قال العرجي :

أيامُ عيشي لِينَ مسهْ و خيرُ عيشِ المرء ما لانا

حتى عدانا كاشحُ شامتٌ يجعلَ نارَ الحبِ نيرانا 108

و الشاعر العاشق تحت وطأة فراق حبيبته و نأيها عنه ،تتأجج نيران الشوق في أعماقه، و تترك أثرها عليه فلا يطفأها شيىء و لا هي قاتلته ، و يشبه نفسه بالناقة التي أصابها الهيام 109

و قد زَوَّدتْ ميّ على النأي قلبهُ علاقات حاجاتٍ طويلٌ سقامُها

فأصبحتُ كالهيماء لا الماءُ مبرئ صداها و لا يقضي عليها هيامها 110

كما شبه الشاعر حليّ الحبيبة على نحر صاحبته و توهجها بالجمر فيقول :

كأنَّ على لبأّنها جَمْرَ مصطلٍ أصابَ غضاً جزلاً و كُفَّ بأجذال 111

و قد فخر العربي و مدح و رثا بكثرة النار، و هي دليل على كرم الضيافة ، وعلى أخلاقهم التي كانوا يتمسكون بها ، لذلك تسابق العرب لإشعال نار الضيافة التي كانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة على غرار نار الاستمطار لتكون أشهر، و هي عندهم من أجل النيران ، و يدور في شعرهم الفخر بهذه النيران يقول عون بن الاحوص :

و مستنبحٌ يخشى القواء و دونَهُ من الليل بابٌ ظلمةٌ و ستورُها

رفعتُ لَه نَاري فلما أهتدى بها زجرتُ كلابي أن يهرَّ عقورَها 112

وكلما كانت النار عظيمة، كان ذلك دليلاً على كثرة كرم الممدوح حيث يراها أكبر عدد ممكن من الناس ، وقد ذكر ذلك الأعشى في مدحه لإياس بن قصبةقائلاً:

تبتني المجدَ وتحتازَ النُهى وتُرى نارُك منه ناءَ الطرحِ113

ومازال إقراء الضيف، وإكرامه تدلُّ عليها النار منذ عهد الجاهلية الى اليوم ، وعند ذاك تغدو النارُ فكرةً تسكنَ رؤيةَ الشاعر الإنسان رمزاً يشكّل من خلال اللغة الشعرية فيكتسب شعرية المكان :

ربَّ خالٍ ليَ لو أبصرته سَبطَ الكفينِ في اليوم الخَصُرْ

يوقدُ النارَ إذا ما أطفئتْ يعمل القدرَ باثباجِ الجزرُ114

فخال حسان يشعل النار عندما تُطفأ الناس نارها بسبب الجدب وقلة الموارد وصعوبة العيش ، فهذا دليلٌ على كرامه ، لذلك تصبح النار رمزاً دلالياً للكرم . وقد تصبح قلة النار وضعفها رمزاً دلالياً للبخل عندما تكون النار خافته ، فأنّها دليلٌ على البخل، وقلة الجود لأن النار الضعيفة لا تراها العين وليس لها وجود .

ألا إنماّ نيران قيس اذا سَقوا لطارقَ ليلٍ مثلُ نارِ الحباحبِ115

كذلك شبه الشاعر الحرب بالنار ، وهذا التشبيه مازال مستخدماً منذ العصر الجاهلي الى الان لما توحيه دلالة النار ولهيبها لأن(الشرر على الرغم من كونه سبب صغير يؤدي الى نتيجه كبيرة)116 وكذلك الحرب تبدأ بشيىء صغير ثم تنموا وتتفاقم ويصعب السيطرة عليها الى أن تأخذ وقتها لتهدأ ، مثلها مثل النار الطبيعية . كما إنّها تشبه النار في كونها تأكل الصالح والطالح على حدٍّ سواء وفي هذا يقول قيس بن الخطيم :

إنَّ بني الأوس حين تستعرَ ال حرب لكالنارِ تأكلُ الحَطبا 117

وكان للنار من مكانةٍ عند الشاعر الجاهلي فقد أوحت (بالدلالة الوجودية المتعالية التي تشي بالجلال والهيبة وذيوع الصيت)118ومن ذلك قول الخنساء:

وإنَّ صخراً لتأتمُ الهداة به كأنّهُ علمٌ في رأسهِ نارُ119

إما دلالة النار في العصر الإسلامي ، فقد أخذت معانيَّ جديدة مستمدة من الدين الإسلامي والقرآن الكريم فأصبحت النار واحدة من مصاديق الأيمان المطلق بالبعث والنشور ، فإيرادها في الشعر الإسلامي يحملُ معنىً جديداً ، فهو مكان أعده الله تعالى للعقاب يستَعاذ بالله منه لقبحه ولقسوةِ زبانيته، ولشدة عذابه ولم يكن الإسلام بدعاً في هذا بل إنَّ الديانات السابقة أنذرت رسلها أقوامهم منها 120فصارت النار علامة الخطيئة والشر .

وقد صورها القرآن الكريم وأسهب في وصفها ، ولقد تأثر الشاعر المسلم بالصورة، وبنائها بل حتى بألفاظها فقال:

فامسوا وقوُد النار في مستقرها وكلُّ كفورٍ في جهنمِ صائرُ

تلظّى عليهم وهي شبَّ حميها بزبرِ الحديدِ والحجارةِ ساجرُ

لأمرٍ أراد الله أن يهلكوا بهِ وليس لأمرِ حمهُ الله زاحرُ121

وهذه الأبيات متأثرة بالآية (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة)122 كما أنَّ الشاعر الإسلامي يحمّل للنار معاني هي عند العرب قبل الاسلام ولم تنمح من الذاكرة والقيم التي يعرفها عرب الجاهلية، فكانت الدلالة مكتنزة ،وهذا ما نراه في دلالة (النار) فقد أنشد الحطيئة امام الخليفة عمر بن الخطاب قائلاً:

متى تأتهِ تعشو الى ضوءِ نارهِ تجدْ خير نارٍ عنَدها خيَر موقدِ123

فالنارهنا دليل هداية في ذلك الليل البهيم كما أنَّ الممدوح كان كريماً يطلب الضيفان بإشعاله ناراً يراها حتى صاحب البصر الضعيف من قو تها ، وإن من يأتيها يجد عندها خير نارٍ وفيها الدف . وعندها أيضا من يقربها، فالنار هنا معادل موضوعي للكرم ويبدو أيضا إن الحطيئة متأثر بنارِ موسى التي جاءت في قوله تعالى :

((إذ قال موسى لأهلهِ إنيَّ ءانست ناراً سئاتيكم منها بخبر أَو أتيكم بشهابٍ قبسٍ لعلكم تصطلون * فلما جاءها نُودى أَن بورك من في النار ومن حولها))142

(الخــاتمة)

في هذا البحث حاولنا تقديم صورة عن المرجعيات الثقافية للشعوب في مفهومها للنار ، وأسباب تقديسها لها ، واختلاف هذه الشعوب في تقديسها للنار على وفق نظرتها لها ، وعلى وفق ثقافتها ومعتقداتها وانها ترى فيها من القدسية ما ترى ، ولذلك أعدّت لها طقوس غريبة عجيبة وكان من بين هذه الشعوب البدائية الشعب العرب في العصر الجاهلية .

اما عن نظرة القرآن الكريم للنار ، فهي مهولة، مهدّدة ومخيفة للناس ، لكي تسير على طريق الحق، ونلاحظ ان دلالة النار في القرآن الكريم تمثلت في ثلاثة محاور هي ، نار جهنم وهي نار العقاب ، والنار التي تعني الإجماع على أمر ما ، والنار التي تدل على نور . والمعروف ان النار أدة تعذيب ، وان النور من الفاظ الرحمة ، فرحمة الله وسعت كل شيىء ، وهي أكبر من غضبه لذلك جاء هذا التضعيف في تفسير النور .

وقد تحدثت في المبحث الأخير عن أهم وأشهر نيران العرب ، وذكرت أسمائها وكيف وظّف الشاعر دلالة النار فنياً وموضوعياً لخدمة الإغراض الشعرية ،سواء في المديح أم الهجاء والغزل والفخر والحماسة والرثاء وقد إستمرت هذه الدلالة عند الشاعر الإسلامي فضلاً عن ذلك الدلالات الجديدة مكتسبة من الفكر والفلسفة الإسلامية وقبل ذلك من القرآن الكريم .

ويبدو أنَّ للنارِ تأثيراً وسحراً خاصاً على رؤى الشعراء، لذلك ذكروها في شعرهم، وارتبطت في ذهنهم بدورة حياة الإنسان فهي مثله تنمو وتشتد ثم تخبو فلا تترك النار من بعدها سوى الرماد ، ولا يترك الإنسان في الحياة من بعده سوى ذكر الأيام الخوالي والمآثر والإعمال التي تشيد بها الناس، وغير هذا زائل فارتبطت بفكرة وجود الإنسان وبكل شيىء يبدو صغير ثم يشتد ويقوى وبعد ذلك يترك الى العدم كالإنسان في هذه الحياة .

الفهرست

1) : معجم الألفاظ والإعلام القرآنية : 546
2) **يُنظر : الصحاح : 2/839 (نور)**
3) النمل :8
4) **يُنظر : لسان العرب :5/242 (نور)**
5) **يُنظر :الصحاح :2/839 (نور)**
6) **مقاييس اللغة : 5/368 (نور)**
7) ينظر المصدر نفسه : 5/368 (نور)
8) الواقعة : 71
9) الواقعة:72
10) تفسير البيضاوي : 2/493
11) **يُنظر الكشاف : 2/95**
12) شجرتان يستعملهما الأعراب في إشعال النار
13) الكشاف : 2/95
14) **رواه أبو داود والترمذي والحاكم في المستدرك ،يُنظر الجامع الصغير :903**
15) **يُنظر الحيوان : 4/464**
16) **يُنظر كتاب صفة النار : 18،23،24،29**
17) الحج :22
18) ينظر كتاب صفة النار :19
19) الهمزة :8
20) **يُنظر الأعجاز البيان للقرآن الكريم /447**
21) **يُنظر البلاغة في القرآن الكريم /306**
22) **يُنظر الطبيعة في القرآن الكريم / 430**
23) إبراهيم : 15-16-17
24) الهمزة :6
25) الشورى :7
26) **يُنظر الصحاح : 2/685(سعر)**
27) الرحمن :35
28) ديوان حسان :197 والسيرة 1/382
29) **يُنظر جامع البيان : 17/171**
30) الرحمن :35
31) ديوان النابغة الجعدي :100
32) **يُنظر : الأعجاز البياني للقرآن الكريم :344**

33) ينظر:المصدر نفسه 345
34) المرسلات :32
35) العين : 6/217 (الشر)
36) مقياس اللغة : 3/180
37) طه : 9 ،10
38) يُنظر التهذيب اللغة : 8/419 (قبس)
39) يُنظر الأعجاز البياني للقرآن : 369
40) طه :10
41) المائدة : 64
42) يُنظر : الوجوه والنظائر في القرآن الكريم :29
43) المائدة : 64
44) ديوان قيس بن الخطيم : 157
45) العصر الجاهلي /309
46) الأنبياء : 68 ،69
47) ينظر : النار في التحليل النفسي، جاستون باشلار،مجلة الآداب الأجنبية : 11
48) الأنبياء :69
49) يُنظر: مجمع البيان :7/45
50) النمل : 8-9
51) ينظر : مجمع البيان : 7/250
52) ثمار القلوب :52
53) آل عمران : 183
54) آل عمران : 183
55) ينظر: السلوك الجمعي : 335
56) ينظر :تاريخ العرب وبدايته : 358
57) الدلالة الوجودية للنار :مقالة للدكتور سلام الأوسي: مجلة الرواد :48
58) السلوك الجمعي /341
59) يُنظر الحيوان : 4/478
60) يُنظر : معالم وتاريخ الدولة الساسانية : 125،124،123
61) يُنظر: معالم وتاريخ : الدولة الساسانية : 128
62) يُنظر : السلوك الجمعي : 6
63) يُنظر: معالم وتاريخ الدولة الساسانية :124
64) العقائد والفرق الدينية : 151

65) اعتماد رقم ثمانية عشر ليس لهُ مبرر في أصول الديانات الزرادشتية بأستثناء ما يتوقع من مضاعفة (الترابيع) الزروانية المتعلقة ببداية الخليقة.
66) هم رجال دين من مرتبة متوسطة
67) النار في التحليل النفسي ،جاستون بشلار ،مجلة الادآب الأجنبية : 15
68) يُنظر : معالم وتاريخ الدولة الساسانية : 132
69) يُنظر : الآثار الباقية في القرون الخالية : 288
70) السلع والعشر : نوع من أنواع الشجر
71) أميّة بن آبي الصلت : 213
72) يُنظر تاريخ العرب قبل الإسلام:341
73) أثار البلاد : 345
74) يُنظر نهاية الأرب في فنون الأدب : 105
75) كنيسة البيع ، كنيسة النصاري وقيل بيت اليهود
76) يُنظر : الحيوان : 4/ 479
77) يُنظر : السلوك الجمعي : 571
78) يُنظر : النار في التحليل النفسي ،جاستون باشلار،مجلةالادآب الاجنبية:28
79) يُنظر : جريدة الثورة صفحة الأولى لسنة 2001
80) يُنظر : الحيوان : 4/470
81) يُنظر : تاريخ الطبري 2/96
82) يُنظر :ديوان أوس ابن حجر :69
83) الغيلان:وحوش مفرد غول وهي مما يخيف الآخر،وهي من صنع الخيال العربي
84) الحيوان :4/483
85) ديوان بشار :120
86) المخصص :15/19
87) يُنظر ثمار القلوب :460
88) يُنظر الحيوان:5/41
89) وسم في عرض عنق البعير
90) سمة في الفخذ طويلة عرضاً
91) الحلقة سمة في الأذن
92) هاشت الإبل هوشاً :نفرت من الغارة فتبدّت وتفرّقت
93) الحيوان :4/491
94) وهو نبات له عطر عندما يوضع في النار

95) ديوان حسان بن ثابت :25-26
96) يُنظر المخصص :11/28
97) ديوان زهير :30
98) الأوائل:28
99) ديوان الأعشى :87
100) يُنظرالنار في التحليل النفسي ،جاستون باشلار،مجلة الآداب الأجنبية :28
101) شعر أبو دؤاد الاياد:309
102) ينظر :النار في التحليل النفسي ،جاستون باشلار ،مجلة الآداب الأجنبية :28
103) المصدرنفسه:103
104) ديوان قيس ابن الخطيم :134
105) ديوان المهلهل ابن ربيعة :46
106) المصدر نفسه:44
107) الكاشح : هو صنف من الرقباء لم يكن يكتفي بالرقابة بل كان يضمر العداوة والبغضاء ويقصد الى التفريق بين المحبين .
108) ديوان العرجي:169،168
109) الهيام :داء يأخذ الإبل فتسخن جلودها وتشرب الماء فلا تروى.
110) ديوان ذو الرمة:318
111) ديوان امروء القيس :136
112) المفضليات :36 ، مستنبح :من ينبح حتى ترد عليه الكلاب فيعرف ان حيا" قريبا"منه ،عقورها :العاض
113) الاعشى :118
114) ديوان حسان بن ثابت :260
115) الحيوان :4/487
116) النار في التحليل النفسي،جاستون بلاشير،مجلة الادآب الاجنبية:91
117) ديوان قيس بن الخطيم :176
118) الدلالة الوجودية للنار ، مقالة د .سلام الأوسي، مجلة الرواد:48
119) ديوان خنساء:55
120) باستقراء القرآن الكريم نرى أنَّ هذه الدلالة وجدت مع وجود الإنسان، ففي قصة النبي آدم (ع) يقول هابيل لأخيه كما وردفي سورة المائدة الآية(32)(إنيّ أريد أنا تبوأ بإثمي وأثمك فتكون من اصطحاب النار)
121) ديوان كعب ابن مالك :201

122) البقرة :24
123) **ديوان الحطيئة:81**
124) **النمل:7 ،8**

المصادر والمراجع

القران الكريم
1. الآثار الباقية في القرون الخالية ، أبو الريحان محمد بن احمد البيروتي (ت 440هـ) طبعة ليبزج
2. الاعجاز البياني للقران ومسائل ا بن الأزرق(دراسة قرآنية لغوية وبيانية)، دكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، مصر دار المعارف، ط م 4 200
3. الاوائل .ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري(ت 395هـ)، بيروت لبنان،ط 11407 هـ – 1987 م .
4. البلاغة في القران الكريم ، د . احمد احمد بدوي ،القاهرة مصر .
5. تاريخ العرب وبدايته ، أمين المدني ، دار المعارف ، مصر (1964 م)
6. تاريخ الرسائل والملوك ، الطبري ابو جعفر محمد بن جرير (310 هـ) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم القاهرة (1962) دار المعارف ،بمصر
7. أنوار التنزيل وإسرار التأويل / أبو محمد الحسين بن مسعود البيضاوي (ت 510هـ) البابي الحلبي مصر.
8. تهذيب اللغة : لابي منصور محمد بن احمد الأزهري ، تحقيق طائفة من المحققين – مصر (1967 م)
9. ثمار القلوب : النيسابوري أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي،القاهرة، 1965 م .
10. جامع البيان في تفسير القران . الطبري ابو جعفر محمد بن جرير (310 هـ) دار المعارف بمصر، 1957 .
11. الجامع الصغير : القرطبي أبو عبيد الله احمد الأنصاري ، تحقيق عبد العليم البردوني دار الكتاب ، القاهرة ،1967
12. الحيوان ، الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ن تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة الباب الحلبي ، القاهرة .
13. ديوان اوس بن حجر تحقيق وشرح د. يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت، ط 2 ،1967
14. ديوان بشار بن برد ، اعتنى به السيد محمد بدر الدين العلوي بيروت دار الثقافة ط 1.
15. ديوان الأعشى الكبير ، شرح وتعليق د.محمد حسين بيروت 1974 .

16. ديوان حسان بن ثابت الانصاري ، تحقيق د. وليد عرفات دار صادر بيروت 1974 م
17. ديوان الحطيئة ، بشرح ابن السكيت والسكرى والسجستاني ،بتحقيق نعمان أمين طه ، مطبعة مصطفى باب الحلبي واولاده بمصر، 1958
18. ديوان الخنساء، شرح وتحقيق عبد السلام الحوافي ،بيروت 1967
19. ديوان زهير بن أبي سلمى ، تحقيق فخر الدين قياوة ، دار الأفاق الجديدة، بيروت (1980 م)
20. ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد ، دار صادر بيروت ط 2 1967 م .
21. ديون كعب بن مالك،تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم،الجامعة الأميركية ،دار صادر ،بيروت،2002م
22. ديوان المهلهل بن ربيعة : أعداد وتقديم طلال حرب دار صادر بيروت 1996 .
23. ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ، د. يوسف خليفة ،مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة
24. السلوك الجمعي : د. حاتم الكعبي،مطبعة الديوانية الحديثة ، 1973
25. شعر أبو دؤاد الأيادي،ضمن (دراسات في الأدب العربي) ،تأليف غوستان ظون غرنباوم ،ترجمة الدكتور احسان عباس والدكتور محمد يوسف نجم والدكتوركمال يازجي ،منشورات دار الحياة بيروت 1959 م
26. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) الأمام إسماعيل بن حماد الجوهري ، طبعة بولاق الثانية .
27. صفة النار للامام ابي بكرعبد الله بن محمد بن عبيد بن ابي الدنيا المتوفى سنة (281 هـ)،حققهُ وأخرج أحاديثه مسعد عبد الحميد محمد السعدني ، مكتبة القران للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة .
28. الطبيعة في القران الكريم : الدكتور كاصد ياسر الزيدي دار الرشيد للنشر – العراق
29. العصر الجاهلي، الدكتور شوقي ، دار المعارف، مصر، ط 2 ، 1977
30. العقائد والفرق الدينية ، د. هادي حسين حمود، بغداد، 1977

31. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري صححة مصطفى حسين احمد ، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1946
32. لسان العرب جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن المنظور الأفريقي المصري (ت 711 هـ) اعتنى بتصحيحه أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق ألعبيدي، دار إحياء التراث العرب للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت ، ط 1999 م
33. مجمع البيان في تفسير القران، ابو علي الفضل بن الحسن الاجزاء، بيروت، 1961
34. المخصص، أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي والأندلسي المعروف بابن سيدة (ت 485 هـ) المكتب للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، د.ت
35. معالم وتاريخ الدولة الساسانية(عصر الاكاسرة 224-636)م ، الاستاذ الدكتور مفيد لائق محمود العابدي ،دار الفكر دمشق، 2005
36. معجم الألفاظ والإعلام القرآنية ، محمد إسماعيل إبراهيم دار الفكر العربي –القاهرة (د.ت)
37. معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسين احمد بن فارس زكريا(395 هـ ت)تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة، القاهرة
38. نهاية الارب في فنون الأدب ،تاليف شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري (677-732هـ)، مطابع كوستاستوماس وشركاه ،القاهرة
39. الوجوه والنظائر في القران الكريم : هارون بن موسى تحقيق د. حاتم الكعبي وزارة الثقافة والإعلام دائرة الآثار والتراث 1988

الدوريات :الصحف والمجلات

1. مجلة الآداب الاجنبية،النار في التحليل النفسي ،جاستون باشلار،ترجمة نهادخياط،العدد الأول، سنة 1976
2. مجلة الرواد،الدلالة الوجودبة للنار،د.سلام كاظم الاوسي ،العدد السادس ،سنة 2000
3. جريدة الثورة،النار الأزلية في كركوك ،محمد حسين الداغستاني،صفحة الاول ،2001